في آفاق مجهولة

عن المــــوت..

للأستاذ محمد رجب البيومي

يقسو الموت على الإنسان فيخطفه من بين أهله وذويه، ويحمله إلى حفرة دامسة حالكة، لا يسطع فيها نجم ولا يهب بها نسيم، ووراءه أكباد تتقطع حسرة على فراقه، ودموع تتساقط حزناً على غربته، وأجسام ترتدى السواد، فتثير كامن اللوعة ودفين الوجد

وقد يحاول كثير من المرزوئين فى أحبائهم وأعزائهم التجلد والتماسك فيظهرون الرضا والاستسلام بضع ساعات، ثم تهب عليهم الذكريات الموجعة فتطير الأمن وتمزق الصبر، ويصبح الصابر القانع، كالهالع الجازع، فريسة فى أيدى الحزن يمزق أحشاءه، ويريق دموعه، حتى يمن الله عليه بالسلو مرة ثانية فيتماسك ويتجلد، إلى حين محدود ... !

وكنت أسائل نفسى حين أقف موقف الملتاع بين الكارثة والكارثة، أأنا محق فى هذه اللوعة التى أكابد غصصها، وأعانى برحها، أم أن الداء يخوننى فى موقفى فأظل كاسف البال شارد اللب. ومهما تذرعت بالمنطق والحكمة، فلن أجد الجواب الحاسم لهذا السؤال المعجز. ومن لى به، والموت فى حقيقة أمره باب موصد محكم تعلوه أقفال غلاظ شداد فلا يمكن لإنسان أن يعرف ما وراءه مهما أجهد الفكر وواصل التنقيب

ولعل غموض الموت سبب أصيل للحيرة التى يعانيها الإنسان من جرائه، فلو أدرك المرء أمره، وما يعقبه من خطوات مستترة خافية، لا تنتهى إلى نتيجة معينة، ووقف عند حد لا يقبل التجاوز ووطد العزم على قبوله راضياً أو كارهاً، وهنا تتبدد الحيرة وينتهى التساؤل، ولكن ذلك لن يكون، فالباب موصد، تعلوه الأقفال، ولن يزال ما وراءه خافياً عن الأفهام ... وهذه الحيرة التى تكتنف كل مفكر فى مصيره، متأمل فى عقباه، لن يخلو منها إنسان رزق نصيباً من المرفة. سواء أكان مؤمناً عميق اليقين بما لديه من نصوص، أم شاكا يتقلب على جمر الريب والظن. فالإيمان بالله واليوم الآخر لا يحل المشكلة بحال، لأن الذى يعتقد البعث والنشور، يتساءل عما قبل البعث من خطوات فلا يظفر بجواب. وقد يجد أقوالا متفرقة هنا وهناك فلا يلمس فيها النجاة والراحة، بل ربما ضاعفت شكوكه، وأثارت كوامنه. ولقد كان مالك بن دينار رضى الله عنه راسخ اليقين قوى الإيمان، ومات له أخ شقيق فجزع عليه جزعا شديداً، وقال لمن واساه: «والله لن أرتاح حتى أعلم ما هو عليه بعد الموت، ولن أعلم ما هو عليه حتى أصير إليه» فكأنه لا راحة له طيلة الحياة!

والإنسان إذا استبدت به الحيرة، ودفعته إلى التفكير فى أمر مبهم غامض، لا يزال ينتقل من رأى إلى رأى ومن مذهب إلى مذهب، حتى إذا اطمأن إلى معتقد راسخ عاودته الشكوك فتركه إلى سواه. وهذا سر التشعب فيما قيل عن حقيقة الموت وما يليه من خطوات. ومن المسلم به أن كثيراً من الناس قد فكروا فى مصايرهم، وخرجوا بنتائج تقترب وتبتعد، وتتفرق وتتجمع، ومنها ما يقف من الآخر موقف الناقض المباين، وأنت تجد بين هؤلاء من يحذر الموت ويخشاه وينظر إلى يومه المحتوم خائفاً مذعورا، كما تجد بينهم من ينشد الموت ويطلبه، بل ربما ركض إليه واثبا، فأشاح عنه وتمنع عليه، ولكل من الفريقين دليله المستمد من ظروف معيشته، وواقع حياته — فى الغالب — وقد يكون من الأوفق أن نسأل من يحذرون الموت لم يحذرون؟ كما نسأل من ينشدون الموت لم ينشدون؟ ولكل وجهة هو موليها، فبأى منطق يجيب

لقد كان للفكرة الذائعة التى يأخذها الطفل عن الموت منذ نشأته أثر بغيض ينعكس على نفسه شتى الصور الرهيبة، ويزيل من مشاعره معانى الاطمئنان والأمن، فهو فى سنيه الأولى يسمع الصراخ الفاجع، ويرى الدموع المتقاطرة من أقاربه وذويه، فيسأل عن سر هذا الفزع، فتطرق سمعه لأول مرة كلمة الموت ممزوجة بالنشيج والبكاء، فيبكى هو الآخر متأثراً بما يرى ويسمع، ويتوالى الحادث كعادته بين الناس، فيعيد إلى الطفل

ما عرفه من البكاء والنحيب ، فيعلم أن الموت كارثة فادحة ، ومصيبة حارة ، ويتغلغل هذا الأمر في إدراكه ووجدانه ، فيشب كارهاً الموت قبل أن يدرك حقيقته ، وقد دأبنا أن نلقن الطفل في مختلف أدواره التعليمية أنباء قاسية عن ملك الموت وما تعانيه الروح لدى انفصالها الهائل من هم وتبريح ، فيتعاظمه الأمر ، ويتخيل نفسه وقد أحيط بهذه الكوارث فلا يجد مفرجا من ضيق . هذا إلى الأساطير الخيالية التي تتحول في بعض الأذهان عقائد ثابتة ، فترسم للذهن الزبانية والمقامع النارية في صورة رهيبة حالكة ، فلا يسعه إلا الفزع من الموت ، ذلك الغول الرهيب الذي ينقل الناس فجأة من الجنة إلى النار . ولو أننا أعطينا للطفل صورة مقبولة عن الموت ، وباعدنا بينه وبين من يحتضرون ، فلا يشاهد ما يعانيه المريض في مرحلته الأخيرة من ألم وتبريح ، لهان الأمر عليه بعض الشيء ، ونظر إلى الموت — فيما بعد — كأمر طبيعي تنتهي إليه الكائنات ، ولكن متى يكون ذلك !

وليست ملابسات الموت وحدها السبب في خوف الإنسان وفزعه من القدر المحتوم ، بل يضاف إليها أشياء وأشياء ، فكل إنسان مهما تجنب الرذيلة ، وآثر الفضيلة ، لابد متعرض في بعض مراحل حياته إلى ما يغضب ربه من الآثام ، والضمير رقيب يقظ غير نائم فيظل يذكر المرء بما اقترفه ، وإن كرت الأيام عليه ، فإذا تصور الإنسان نفسه وقد حان حينه ، ودقت ساعته الآزفة مع أنه قد أسلف ما أسلف من ذنوب سيحاسب عليها حساباً منصفاً تأكد من العقاب العادل ، وعجز عن حمل التبعة الثقيلة ، ومن ثم فهو يبغض الباب القاتم الذي يدفعه إلى الجزاء والحساب ، وينظر إلى موعده المحتم نظرة الخائف المتفزع . ونحن وإن كنا نطمع في عفو الله ، ونأمل في الصفح والغفران ، لابد لنا من صورة معقولة لهذا اليوم تصد النفس الأمارة بالسوء ، على أن نتخيل بجانبها صورة بهيجة ذات مفاتن وأضواء لمن يعتصم بالأدب والأخلاق ، وهنا يكون الموت غير مخوف إن ألم بذوي المروءة والدين ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه كما قيل

ولن ننسى في هذا المقام ما يبعثه القبر المظلم الضيق في النفوس من رهبة وإيحاش ، فكثير من الناس تتفتت أكبادهم حسرة حين يتصورون أجسامهم في حفرة دامسة خانقة لا يقربها النور والهواء ، وكأن بهؤلاء الجازعين رقدوهم وأن إحساسهم سيصحبهم في هذه الغياهب الحالكة ، فيشعرون بما يشعر به الحي حين يوضع في صندوق مقفل خانق ، ولو كان الأمر كذلك حقيقة ، لجل الصبر ، وعظم الخطب ، ولكن أما يتناقص الجسم يوما بعد يوم؟ أما ترتع فيه الديدان والهوام أسوأ مرتع في محبسه الرهيب ؟ أما يمر عليه يوم ينعدم فيه ويتلاشى وتتحول بقاياه إلى ذرات ؟ أين إذن يكون الألم والإحساس؟ وإذا سلمنا منطقيا أن الجسم لا يألم بعد وفاته وانعدامه ، فلم لا يندرج عليه هذا الحكم حين ترتع به الديدان والهوام وهو سجين حبيس ! ولم نخاف الظلمة والضيق والهامد الراقد لا يشعر بهما بحال ؛ ذلك نوع من الخبال !!

لقد سطر كثير من الكتاب صحائف مفزعة عن القبر وما يتراكم فيه من ظلمات وأهوال ، فتركوا أسوأ الأثر في النفوس ونغصوا على الناس حياتهم ومعاشهم شر تنغيص . وهل كان الحمام محتاجا إلى ما يريدونه من الإرهاب والتخويف ، فجاءوا يضيفون إلى أهواله الحقيقية والمتوهمة أكداسا فوق أكداس !

هذه بعض الهواجس التي يرددها الخائفون الوجلون ، وقد حاولنا أن ننقدها بعض الشيء مما يغمرها من المبالغة والتهويل ، ولن نتمادى معهم في مخاوفهم المتشعبة ، فلدينا الفريق الآخر الذي يرحب بالموت ويرسل في تمجيده الشوارد السائرة ، وأنت تجيل طرفك فيما سطره هؤلاء فتجد سيلا جارفا من الحكم والأمثال قد سيق سوقا في هذا المضمار ، فمن قائل « مقابر من ماتوا منازل راحة » . « إن سئمت الحياة فارجع إلى الأرض .. » ومن قائل « ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها » .. « فيا موت زر إن الحياة ذميمة » ومن قائل : « وفقت حين تركت ألأم دار » ، « خضم الحياة بعيد النجاة » وقد فاقهم جميعاً من يقول في رثاء صديق :

كذبتك لم أجزع عليك وقد رمى
فؤادك من نبل الحمام ظلوم
تمر الليالي لا نحس صروفها
فيا ليتني في الهالكين مقيم

نجوت من الدنيا نجاة نفسها
عليك ولو أن الفراق أليم
ولم أر مثل العيش أزهاره الردى
ولا عاصفاً كالموت وهو نسيم

فهل عان على هؤلاء طعم الحياة كما يقولون ، وهل يحنون إلى التراب حنينا خالصا ريثا ؟ وماذا أعجبهم فى المستقبل المجهول وهو ملئ بالغرائب والشكوك ؟

وجه هذه الأسئلة إلى من يصبون اللعنات على الحياة، ووجه هذه الأسئلة إلى من يرحبون بالانتحار ؟ فان تظفر من هؤلاء بكلمة صادقة فى حب الموت ، فهم غارقون إلى آذانهم فى مخاوفه ومآسيه، ولكنهم يلمسون القوة الصارمة من الحياة. فيتمرضون إلى الفشل المخجل والخسارة الفادحة ، والناس لا يرحمونهم فى شىء ، بل يلوكون أحاديثهم ، ويمضغون مآسيهم شامتين فرحين، ويدور الفاشل بعينه فلا يرى من يرمقه بالعطف ، أو يلتمس له العذر فى ذلة ، وقد يتضاءف وهمه فيظن أن الناس جميعاً يتندرون به فى كل مجتمع وناد، فيضيق فى وجهه العيش، وتسود فى عينيه آفاق الحياة ، ويفزع إلى مصرعه البغيض كارها مرغما ، وهو يوطن نفسه على ما ينتظره من شدائد وأهوال

أعرف ثريا موسرا رتع فى بحبوحة النعمة والترف أمداً غير قصير ثم ضربه المرض بذات الجنب فكان يتقلب على سريره متأوهاً صارخاً وقد حاول الأطباء أن يهدئوا من لوعته فما رجموا عليه بطائل . وفى غفلة من أهله ألقى بنفسه من شرف عال ، فلفظ بقية أنفاسه . وأعرف عشرات غيره من المدمنين اليائسين بهظتهم الحياة بتكاليفها الضرورية ، وتضورت بطون أطفالهم جوعا وحرمانا ، فهالهم أن يقعد بهم العدم عن إسعاد أولادهم فخفوا إلى الموت مرغمين ، وفى صدورهم مراجل من اللوعة تغلى وتحتدم حتى تنفجر انفجاراً ، يراه الناس انتحاراً جبانيا ، وهو فى الواقع بعيد الأمد عميق الجذور ! فيا هؤلاء لا تقولوا إنكم تحبون الموت ، ولكن قولوا إنكم لم تجدوا مفرا من الموت فسيمم إليه فزعين غير مختارين !

ولكن مالنا نزيد الأمر هولا فوق هول ، فنؤكد المخاوف، ونقلق النفوس ، وأولى بنا أن نعمد إلى شئ من التهدئة ، والتلطيف ! الحق أن الفناء رهيب مهول ، وأن من دافعوا عنه يلجأون إلى العقل وحده فيقنعونه تارة ويدفعهم تارات ، أما العاطفة فقد أوصدت منافذها دونهم أى إيصاد ، فما وصلوا إليها فى قليل أو كثير ، وأنت تقرأ لهؤلاء فى تمجيد الموت والترحيب به أقوالا أخذت سمت المنطق فى القياس والاستدلال ، فلا تجد شيئاً من قبولك الصريح وهيهات أن يكون ذاك ،واسمع ما يقوله أحد فلاسفة الإسلام على سبيل المثال :

قال ابن مسكويه — ما فحواه — « والإنسان فى أصح تعاريفه حيوان ناطق ميت ، فبالموت يبلغ كماله ويصل إلى نضجه فلم يخاف إذن من الكمال ؟ وكل ينشده ويبتغيه » فهل راقك هذا الكلام ؟ قد يتحير عقلك بين الرفض والقبول ، إن لم يرفضه بادئ ذى بدء دون نقاش ، أما العاطفة فتأباه وتتحاشاه، والإنسان ليس عقلا فقط ، ولكنه عقل ووجدان !

لقد مات سقراط وهو يتحدث عن الخلود مرحبا ،وجاء بعده مئات من الفلاسفة والحكماء فشغلوا أنفسهم بما شغل به سقراط، فهل اقتنع بمنطقهم إنسان ، وهل رغب أحد فى الموت ليصل إلى الخلود والبقاء ؟ لقد ذهب كلام الفلاسفة أدراج الرياح ، وجاءت الأديان فأنقذت الملايين من البشر ومالت بهم إلى عقيدة ثابتة بددت شكوكهم ، وأغاثتهم من الحيرة والارتياب ، حتى إن جاهليا بدائيا تقلقه وساوسه فيسعى إلى الجمع الحاشد بمكاظ فيوجه إليه هذا السؤال « ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ؟ » وتمضى الأيام مديدة طويلة فلا يرجع من الراحلين عائد ينبئ بما شاهد ، وأنى لغائب أن يعود ، وقد قامت دونه الصفائح ، وسجنته الأجداث!

ربى حولها أمثالها إن أتيتها
قرينك أشجانا وهن سكون
كفى الهجر أنا لم يضح لك أمرنا
ولم يأتنا عما لديك يقين (١)

« المنصورة » محمد رجب البيومي

(١) كتبت هذا المقال إثر وفاة قريب عزيز على